# دور مملكة أرمينيا الصغرى في اقامة التحالف المغولي–الصليبي

**إعداد الأستاذة فاطمة بوعمامة**
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة الجزائر

## الوضع السياسي:

واجه حكام أسيا الصغرى في بداية القرن الثالث عشر الميلادي خطر وتوسعات المغول الذين قويت شوكتهم في عهد حاكمهم جنكيز خان ( 603-624 هـ / 1206 – 1227م)، الذي أخضع شمال الصين وأسيا الوسطى، وتركستان، وأتم أولاده ثم أحفاده من بعده غز وفارس والعراق[1].

وقد واصل أوكداي خليفة جنكيز خان[2]. فتوحات والده في كل من الصين وغرب أسيا وأوروبا ثم توجه غربا وأخضع الدولة الخوارزمية[3] ولقى حاكمها حتفه سنة 628هـ/1231م، في جبال كردستان على يد أحد الأكراد[4] بعد ذلك استأنف المغول توسعاتهم في البلاد الإسلامية مستغلين فترة النزاع القائم بين السلاجقة في آسيا الصغرى من جهة، وحكام مصر والشام من جهة أخرى[5].

استولى المغول خلالها على ديار بكر، وميا فارقين[6]، وماردين، ونصيبين، وسنجار، وخلاط، وأذربيجان (629هـ/ 1232م)، ثم توجهوا شمالا وفي سنة 639هـ/1242 سقطت أرمينيا الكبرى، وسجستان وكابل في يد المغول[7].

وفي عام 639هـ / 1242 م، دخل الجيش المغولي بقيادة بايجو نويان بلاد الروم وأرزنجان، وقيصرية وسيواس، التي كانت تمثل سلطنة قونية، وكان يحكمها غياث الدين كيخسروا الثاني[8].

كانت لهذه الأوضاع المتردية والمهددة للمصالح الإسلامية والمسيحية معا في هذه الفترة، أي في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي جعلت المسلمين والمسيحيين

يتجاوزن خلافاتهم والتغاضي عن أحقادهم، وإقامة حلف موحد لصد هجومات المغول التي كانت تهدد كيانهم، وهكذا نشأ لأول مرة منذ ظهور الحركة الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر الميلادي، حلف بين المسلمين والمسيحيين: من أرمن وبيزنطيين وفرنجة للقضاء على المغول، وشكلوا جيشا موحدا مكونا من عشرين ألف فارس مسلم بقيادة غياث الدين كيخسروا الثاني وألفين فارس فرنجي بقيادة يوحنا ليميناتا Jean Liminata - من جزيرة قبرص - وهيثوم الأول[9] ملك أرمينيا الصغرى[10] والتقى الجيشان في نواحي أرزنجان في مكان يسمى بالجبل الأقرع أو كوسة طاغ، وكانت نهاية الحرب لصالح المغول[11].

كان لانهزام المسلمين والمسيحيين أمام المغول في معركة كوسة طاغ، أثر كبير في تغيير بعض المواقف السياسية، فقد أرسل غياث الدين كيخسروا الثاني بمبعوث إلى الخان المغولي يعلن فيه خضوعه وتعهده بدفع جزية سنوية، كما قام بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل بتقديم ولاء الطاعة للمغول باسمه وباسم أهل دمشق، وفرض على أهلها ضريبة اسمها ضريبة. النتر[12]، وأرسل الإمبراطور البيزنطي مانويل كومنينوس سفارة إلى كيوك خان سنة 643هـ / 1246 م. لذا توقفت هجومات المغول في هذه الفترة عند حدود الإمبراطورية البيزنطية[13]. كما أرسل الفرنجة سفارات إلى قره قوروم حاضرة المغول محاولين بذلك تناسي أحقادهم.

وفي سنة 654 هـ/ 1256م، دخل هولاكو إيران وعبر عموداريا، فقدم له الأتابكة من بقايا الدولة السلجوقية والخوارزمية ولاء الطاعة، واستقبل حاكم المغول سفراءهم، وأعلن كل من عز الدين كيكاوس الثاني وركن الدين قلج أرسلان الرابع ولائهما لهولاكو[14]. ثم أخضع الطائفة الإسماعيلية في نفس السنة[15].

وهكذا أخضع هولاكو كل منطقة إيران لحكمه، وعمل على إقامة مملكة منغولية على شكل حكومة مركزية ثابتة الأركان، واستطاع من خلالها مراقبة ومسايرة أخبار ممتلكات المغول في إمبراطوريتهم الشاسعة، وإخضاع بعض أمراء المغول المتمردين عن الخان المغولي الأعظم[16].

بعد غزو المغول لسلطنة قونية سنة 639هـ/ 1241 م، لجأت عائلة كيخسرو الثاني إلى مملكة أرمينيا الصغرى، فطالب قائد الجيش المغولي بايجو الملك هيثوم الأول (1226-1269م) يعد الملك هيثوم الأول من أكبر حكام مملكة أرمينيا الصغرى بعد

الملك ليوم الأول من أسرة البجارطة[17] – بعائلة كيخسرو الثاني، واستجاب ملك أرمينيا الصغرى لأمره خوفا من هجوم المغول عليه[18].

وقد أدى عدم احترام أرمينيا الصغرى للحلف القائم بينه وبين كيخسروا الثاني إلى قيام هذا الأخير بنهب وتخريب بعض مدن أرمينيا الصغرى، وساعده في ذلك قسطنطين حاكم نمرون وهو صهر وعدوا الملك هيثوم الأول فحاصراه في قصره بأذنة. فأسرع قسطنطين – والد هيثوم – وابنه سمباط إلى نجدة الملك هيثوم الأول فرفعا الحصار عنه بعد ستة أيام، وألقى الملك هيثوم الأول القبض على حاكم نمرون الذي قتل فيما بعد (1250م)، بينما استطاع كيخسروا الهروب. وبالمقابل ساعد التتر الملك الأرميني استرجاع قلعة براغانة Bragana، التي كان قد استولى عليها كيخسروا الثاني وذلك مكافئة له على الاستجابة لهم[19].

وقد أدرك هيثوم الأول، أهمية هذا العنصر البشر ي الجديد، فبدأ يعمل من أجل الاقتراب من تلك القوة للتحالف معها واستغلالها لمواجهة الخطر الإسلامي الذي كان يهدد مملكتهم ولحمايتها من سلاجقة الروم الموجودين بالشمال ودولة المماليك بالجنوب[20]، لهذا الغرض أرسل ملك أرمينيا الصغرى أخاه سمباط Sempad في منتصف عام 1248م، في سفارة إلى منغوليا، فاستقبله كيوك خان (1241- 1249 م) حفيد جنكيز خان وخليفة أوكداي بكل حفاوة وترحاب[21]. كما أرسل الخان المغولي رسالة صحبة السفارة الأرمينية إلى الملك هيثوم الأول يبلغه فيها بأنه على استعداد لحماية أرمينيا الصغرى، واسترجاع ممتلكاتها التي مازالت في حوزة الحكام المسلمين، ورجع سمباط إلى مملكة أرمينيا الصغرى عام 1250م[22].

وكان البابا أينوسنت الرابع Innocent IV، قد أرسل سفارات سنة 1246م لتقديم أوراق الاعتماد للخان المغولي صحبة حنادى بلان كربان Jean De plan Carpin، وآسلين Ascelin[23]. ونذكر من هذه البعثات أيضا، بعثة أوفدها لويس التاسع Louis IX، ملك فرنسا برئاسة رجل دين هو وليم روبروق William Rubrouk سنة 653هـ / 1253 م[24]، إلى الخان المغولي .

إلا أن هذه السفارات كلها لم تحظ بنجاح كما حضيت به سفارة مملكة أرمينيا الصغرى، التي عرفت كيف تستميل وتقنع الخان المغولي وهذا باعتبار نفسها ولاية تابعة لدولة التتر بفارس، بينما كانت السفارات الفرنجية تعتبر المغول وإن هم وثنيون منافسين لها في الدفاع عن المسيحية وتمثيلها في قارة آسيا[25].

ولما توفي كيوك خان خلفه منكوخان (1251 ـ 1259م) ، وأسرع الملك هيثوم الأول إلى تهنئة الخان الجديد وتقديم ولاء الطاعة له، وأصر الذهاب إلى قوة قوروم، وتوجه إليها سنة 652هـ / 1254 م، وكانت إمبرطورية المغول آنذاك في أوج قوتها، وكان منكوخان وقتذاك يعد حملة لغزو الغرب، فأقام لملك أرمينيا الصغرى حفلا خاصا، ووعده بحمايته وكنيسته من المسلمين، كما رفع عنه الضرائب[26].

وجد الملك هيثوم الأول في إقناع الخان المغولي بالقيام بحملة مشتركة ضد المسلمين. وتذكر بعض المصادر الأرمينية أن الحاكم المغولي عبر للملك الأرميني عن استعداده لتوجيه حملة مشتركة للقضاء على الخليفة ببغداد ومسلمي الشام[27]. وبالمقابل يمده ملك أرمينيا الصغرى بمساعدة عسكرية، كما ضمن له صداقة المسيحيين الآخرين، كما تعهد الخان المغولي بتحرير بيت المقدس واسترجاعها للمسيحيين وعاد ملك أرمينا الصغرى إلى المملكة في شهر جويلية عام 1255 م[28].

وهنا يلاحظ نجاح سفارة مملكة أرمينيا الصغرى في مهمة فشلت فيها أكبر قوة بالعالم الأوروبي وهي قوة البابوية وما كانت تتمتع به من سلطة ونفوذ في فترة العصور الوسطى، ويعد هذا الانتصار الذي أحرزت عليه مملكة أرمينيا الصغرى مكسبا جديدا لسياستها الخارجية، مكنها من فرض نفسها على العلاقات الدولية .

لما كان المؤرخ والسفير الأرميني سمباط في طريقه إلى قره قوروم سنة 1248 م، لمقابلة كبوك خان، أرسل كتابا من سمرقند إلى صهره هنري الأول Henry I – ملك قبرص –[29] يخبره فيه بالمهمة التي كلف بها، كما وضح له في رسالته المكانة التي تحظى بها الطائفة النسطورية في الإمبراطورية المغولية .

واستطاع سمباط من خلال رسالته هذه أن يقنع مسيحي الشرق بتقديم ولاء الطاعة للخان المغولي الذي استجاب لهم. وكان طبيعيا أن يتعاون الصليبيون مع التتر إذ كان المماليك في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي يمثلون القوة الإسلامية المعادية لهم ، كما كان الملك هيثوم الأول يتحدث دائما للخان المغولي باسمه وباسم فرنجة الشام ، الذين كان يرأسهم الملك الصليبي بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، الحليف الوفي لملك أرمينيا الصغرى[30].

ويذكر المؤرخ الأرميني هيثوم صاحب كتـــاب – La Flor des Estoires أن ملك أرمينيا الصغرى قد أقنع الخان المغولي منكوخان اعتناق الديانة المسيحية هـــو وأسرته وأفراد بلاطه [31].

وفي السنة الثانية لحكمه (650هـ، 1252م) عزم منكوخان تنفيذ وعوده، فجهز حملتين كبيرتين، وضع على رأس الحملة الأولى أخاه هولاكو وكلفه بإخضاع الخليفة العباسي وذلك وفاء بوعده لملك أرمينيا الصغرى، أما الحملة الثانية فكان قائدها قوبيلاي وهو الأخ الثاني لمنكوخان، ومهمته إخضاع الصين الجنوبية.

وكان الخليفة العباسي حينئذ هو المستعصم بالله بن المنتصر، (640-658هـ/1242-1253م)، وقد أجمع المؤرخون المسلمون على ضعف شخصيته وقلة معرفته بتدبير شؤون الملك [32].

ففي عام 655 هـ/ 1257م، كلف هولاكو قائده بايجو نويان، بجمع الفرق العسكرية الموجودة في جورجيا وأرمينيا استعدادا لغزو بغداد، وقبل أن يتوجه هولاكو إلى بغداد أرسل كعادته برسول إلى الخليفة العباسي يأمره بتسليم بغداد والاعتراف بتبعيته للخان المغولي[33]. ولما رفض الخليفة الخضوع، دخل هولاكو بجيشه بغداد يدعمه جيش مملكة أرمينيا الصغرى بقيادة الملك هيثوم الأول نفسه، وسقطت بغداد في يد المغول في شهر محرم 656 هـ / 4 فبراير 1258م [36].

وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله وبموته انقرضت الدولة العباسـية[36]. وقد دامت عمليات التخريب والحرق التي قام بها المغول وحلفائهم الأرمن قرابـة سبعة عشر يوما، وقتل حوالي ثمانون ألف شخص وقد وجد النساطرة واليعاقبـة والأرمن في المغول حماة المسيحية في هذه المنطقة[37].

وكان لسقوط بغداد أثر كبير على العالم الإسلامي، فقد نتيجتها المسلون ثقتهم في أنفسهم، هذا الأمر الذي جعل بعض الحكام المسلمين يسرعون لتهنئة الخان المغولي بعد غزوه بغداد، ومنهم بدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وأبابكر أتابك فارس والسلجوقيين كيكاوس الثاني وقلج أرسلان الرابع حاكما الأناضول[38]. وكان من الطبيعي أن يتوجه المغول بعد إخضاعهم بغداد إلى الشام الإسلامي.

وكان إقليم الشام في هذا الوقت خاضعا لعدة أمراء أيوبيين يحكمون ميافرقين، وحمص، وحماة، وحلب، ودمشق، وحصن كيفا والكرك[39]. وكـان هؤلاء الأمراء

في نزاع دائم، فاستغل ذلك واستولى على المنطقة بكل سهولة، وكان أكبر حكام الشام الإسلامي في المنطقة هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف[40] وكان معاديا لمماليك مصر، لذا عمل الملك الناصر صلاح الدين على أن يبدو في صورة المستسلم للتتار حتى يبعد شرهم ، فأرسل ولده الملك العزيز إلى هولاكو ومعه الهدايا[41].

قد رأى حاكم التتر في ذلك فرصة سانحة فانتهزها لتعزيز حملته، وتذكر المصادر الأرمينية أن خطة الهجوم على الشام الإسلامي التي وضعها هولاكو كانت بالتعاون مع هيثوم الأول ملك أرمينيا الصغرى[42]. لذلك أنظم هذا الأخير بنفسه إلى الجيش المغولي على رأس فرقة عسكرية متكونة من اثنى عشر ألف فارس، وأربعين ألف من المشاة[43]. كما التحق بهما بوهيموند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، والحليف الفرنجي الوفي لهيثوم الأول على رأس جيشه سنة 657 هـ / 1259م[44]. وأصبحت حملة المغول على الشام ذات طابع صليبي اكتسبته بالمساهمة الفعالة لهيثوم الأول وحليفه بوهيموند السادس.

قام هذا الجيش المكون من المغول، والفرنجة والأرمن وهو في طريقه إلى الشام، مارا بأذربيجان بالاستيلاء وبدون مواجهة أية مقاومة على نصيبين، وحران والرها وتل باشر[45]. ولم يجد المغول وحلفاؤهم معارضة، إلا من طرف الأشرف بن الملك الغازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين[46]. الذي رفض تسليم إمارته، واستنجد بالملك الناصر صاحب حلب، ودمشق الذي امتنع عن نجدته [47].

وفي 9 سفر 658 هـ / جانفي 1260 م، دخل المغول وحلفاءه الأرمن حلب واستباحوا المدينة مدة خمسة أيام [48]. وانتقاما من المسلمين قام الملك هيثوم بحرق الجامع الكبير، ولم ينج من الحريق إلا الكنيسة اليعقوبية [49]، كما أسر العديد من سكان المدينة، وبيعوا في سوق العبيد بكيليكيا [50]، وعندما انتهى القتال، أعاد هولاكو إلى ملك أرمينيا الأقاليم والقلاع التي كان قد استولى عليها المسلمون منها: مرعش، وبرج الرصاص، ومرزبان، وجابان، وبهسنة، ودربساك، كما تنازل المغول إلى الأمير بوهيموند السادس عن بعض المناطق التي كان المسلمون قد اقتطعوها من مملكته [51].

هكذا تحققت طموحات المللك هيثوم الأول، واتسعت حدود مملكته بفضل تحالفه مع المغول، وفي جمادى الأول 658 هـ/ أفريل 1260، دخل جيش

الحلفاء دمشق[52] ثم بعلبك فحماة. ولم يكتف الملك هيثوم الأول وحليفه بوهيموند السادس بالسلب والنهب بل حولا مسجد دمشق إلى كنيسة[53]، رغم احتجاج المسلمين على هذا العمل إلى كتبغانوين وتمكن المغول إخضاع معظم الشام الإسلامي[54] في فترة قصيرة من الزمن وتحققت أطماعهم التوسعية حيث فشل المسيحيون رغم عدة محاولات دامت حوالي قرن ونصف قرن من الزمن .

وتشير بعض المصادر أن الملك هيثوم الأول وفرنجة الشام ألحوا على الخان المغولي قوبلاي - خليفة الإمبراطور منكوخان - بضرورة الاستيلاء على مصر، وكان على رأسها الملك المظفر قطز - آخر معقل الإسلام في الشرق، فكلف الإمبراطور المغولي قائده كتبغا بتنفيذ هذا المشروع[55].

غير أن التحالف القائم بين المغول والفرنجة لم يدم طويلا إذ حدث أن هاجم الكونت جوليان الصيداوي دورية مغولية وقتل فيها ابن أخ كتبغا ولما علم هذا الأخير شن حملة تأديبية على صيدا، وتسبب هذا الحادث في القضاء على التحالف الفرنجي المغولي[56]، ويضاف إلى هذا السبب تلك المراسلات التي بعث بها حكام عكا إلى الفرنجة للتعبير عن سخطهم و تفضيلهم الخضوع إلى حكم المسلمين على الولاء للمغول الهمجيين[57].

وقد ساعد هذا العداء القائم بين الفرنجة والمغول، وظهور قوة إسلامية في مصر وهي قوة المماليك في استرجاع الحكام المسلمين لثقهم بأنفسهم، هذا العامل هو الذي سهل مهمة السلطان المملوكي قطز في خلق تعاون وثيق بين مسلم الشام ومصر، وتوحيد جيوشهما لمواجهة العدو المشترك[58].

وكالعادة قام هولاكو قبل توجيه قواته إلى مصر بإرسال مبعوث إلى السلطان المملوكي قطز، يهدده فيها ويطلب منه الاستسلام وتقديم فروض الطاعة[59] وكان رد السلطان قطز بطبيعة الحال هو الرفض، واستعدادا لمواجهة المغول قام بعقد اجتماع مع الأمراء والقادة حثهم على القتال لنصرة للإسلام وطلب منهم وضع خطة القتال[60]، ثم خرج لمواجهة الجيش المغولي ومعه قائده بيبرس البند قدارى وقوات شامية، والتقت القوات المصرية الشامية بالجيش المغولي المدعم ببعض الفرق العسكرية الأرمينية في 25 رمضان سنة 658هـ/سبتمبر 1260م، قرب عين جالوت[61]، وانهزم في هذه المعركة المغول وحلفائهم شر هزيمة[62]. وفيها قتل كتبغانوين مقدم

عساكر المغول، وتتبعت الفرق الإسلامية المغول حتى حمص، كما تتبع بيبرس البند قدارى التتار حتى حدود الفرات[63].

بعد هذه المعركة التي انتصر فيها العالم الإسلامي، تم تثبيت دعائم دولة المماليك في مصر وتوحيد قيادة العالم الإسلامي تحت قيادة الملك المظفر قطز الذي لقب - سيد سوريا[64] - وأصبح المماليك حماة الإسلام وتحولت القوة الإسلامية من سياسة الدفاع إلى سياسة الهجوم، خاصة بعد تحطيم معنويات الجيش المغولي إثر هزيمتهم في معركة عين جالوت، ومغادرة المغول بعدها الأراضي الإسلامية .

## المصادر و المراجع


1- أنظر : D'ohsson : Histoire des mongols, 4 Voles Amsterdam, 1852 ; TII , P 77

2 - فؤاد عبد المعطى: المغول في التاريخ، بيروت 1980م، ص 1، ص 164بـــ وأنظر:

Hayton : la Flor des Estoires de la terre d'orient, in recueil des Historiens des croisa des, documents Armeniens, Paris, Académie des inscriptions et belles lettres, 1869-1906, TII, P 155.

Cahum : Introduction à l'histoire de l'Asie Turcs et Mongols , des origine à 1405, ; Paris 1896. P 234.

3 - القلقشندي صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، القاهرة 1913- 1919، ح 4، ص 307، ابن الأثير : الكامل في التاريخ، مصر، المطبعة الأزهرية، ح 9، ص 379، العزاوي، تاريخ العراق بين احتلالينن بغداد، 1935، ح 1، ص 93-95.

4 - أنظر: Hayton : Op Cit , P 145

5 - الباز العريني: المغول، بيروت، 1967، ص 177-178، فؤاد عبد المعطى، المرجع نفسه، ص 290.

6 - ابن الأثير: المصدر نفسه، ح 9 ، ص 384- 385، وأنظر :

7 - أنظر:

Morgan ; Histoire du peuple Arménien depuis les temps les plus reculés de ses annales jusqu'à nos jours, Paris, 1929, P 203

8 - فؤاد عبد المعطى: المرجع نفسه ، ص 182.

9 - أنظر:

D'Ohsson : Op Cit , P 99, Deguignes : Histoire générale des Turcs des Mangols et des autres tartares occidentaux , TII , P 246.

10 - قسم الأرمن منذ القديم البلاد إلى قسمين هما مزخانيق أي أرمينيا الكبرى، وتمتد من نهر الفرات غربا إلى الإقليم المجاور لنهر كر شرقا، وبوقر خانيق أي أرمينيا الصغرى، وتشمل المنطقة الجنوبية الشرقية من أسيا الصغرى الواقعة بين الفرات ومنابع نهرها ليس، وكان الأرمن يطلقون على أرمينيا الصغرى أيضا اسم كيليكيا أو قليقيا، وأطلق عليها العرب وخاصة الجزء الغربي منها، اسم بلاد ل يون وأحيانا اسم بلادسيز أوسيس: أنظر :

Recueil des Historiens des croisades , Historiens orientaux, TIT, P 22

وذكر أهل السير بأنها سميت أرمينيا نسبة إلى أرمينيا بن لفظا بن أومر بن ياقت بن نوح عليه السلام الذي كان أول من نزلها وسكنها: ياقوت الحموى، معجم البلدان، لبنان، ح1، ص 203 – 204، مادة أرمينيا.

11 ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول، بيروت 1958 ص 251، 252، وأنظر :

Dulaurier: les Mongols d'après les histoires Arméniens , Journal Asiatique, 1858- I, P 463

12 المقرزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، القاهرة 1936، ح1، ق 2، ص 315.

وأنظر: Le mercier : la paix Mongole , Paris 1970 , P 29

13 أنظر: Brehier : le monde Byzantin , 6éme édition ; 1968, TI, p 381.

14 الهمداني: جامع التواريخ، القاهرة 1960، ص 239- 240.

15 المقريزي: المصدر نفسه، ج 6، ص 383، وأنظر

Browne : a Little history of Persia, London 1906 , TII, PP 452- 460.

16 أنظر:

Deguignes : Op Cit , P 25- 246, E Lisseff: L'orient Musulman au moyen âge (622-1260) , Paris, P 1977, P 306.

17 أنظر:

Pasdermadjian : Histoire de l'Armenie des origines jusqu'au traité de lausanne, Paris 1949 , P 239

18 أنظر:

Cahen : Les peuples Musulmans dans l'histoire médicale , Damas, 1977, P 695.

19 أنظر:

Michel le syrien : Chronique ou histoire universale, in recueil des historiens les croisades, documents Arméniens , Paris, 1869- 1906, TII , P 523, Alishan : Léon le Magnifique , Premier Roi de Sissouam , venise 1888, P 364, Jorge : Histoire de la Petite Armenie , Paris 1930 , P 204.

20 المقريزي: المصدر نفسه، ح 2، ق2، ص 510، حاشية 1، أنظر :

Howorth : History of the Mongols, London 1888, TII, P 519 .

21 أنظر:

Sempad: Chronique du Royaume de la petite Armenie , Rec , Hist, Cro, Doc, Arm, TI, P 651, Hayton , Op Cit , P 164.
Saint Martin : Mémoire d'un voyage e, Armenie et en Géorgie, Paris 1818 -1819, IT, PP 33-396 , Greka : la Horde d'or, la domination Tartare au 13e et 14e S de la mer Jaune à la mer Noire, Paris 1939 , P 131.

22 أنظر:

Vahram d'Edresse: Chronique Rimée des Rois de la Petite Armenie, Rec, Hist, croi, Aoc- Arm, TI, P 538, Dardel: Chronique d'Armenie , Rec, Hist, Croi, Doc – Arm, TII , P 11.

23 أنظر: Lemercier : Op Cit , P 37

24 سنة 1250، هو التاريخ الصحيح لسفارة وليم وربورق، لأن روبروق نفسه ترك مذكرة دقيقة عن رحلته في بلاد المغول : أنظر :

Rubrouck : voyage dans l'empire Mongol, Traduction, commentaire, de Claude et Rene Kappler , Paris, 1985, P 52.

25 أنظر:
Pellist: Op Cit , P 246

26 أنظر:
Guiragos de Kantzag: Journal Asiatique, TXI, 1833, 273

27 أنظر:
D'Ohsson : Op Cit, P 311
Hayton : Op Cit, PP 164- 166

28 أنظر:
Rubrouck: Op Cit, P228, note 5, Rumciman, a History of the crusader, Cambridges, TIII, P 53, Grouset : Histoire des Croisades, Paris 1934- 1936, TIII, P 529.

29 أنظر:
Guillaune de Nangis: Vie de Saint Louis, Rec – Hist , de France, TXX, PP 361-363, Grousset: Op Cit; PP 526- 529.

30 أنظر:
Gestes des Chyprois : Rec - Hist – crois, Doc, Arm , TII, P 751.

31 أنظر:
Hayton : Op Cit , PP 167- 168 .

32 السيوطي: تاريخ الخلفاء وأمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، القاهرة: 1251هـ، ص 464- 465.

33 أنظر:
D'Ohsson , Op Cit , P 217.

34 الهمداني: المصدر السابق، ابن شغرى بردي، النجوم الزاهرة في معرفة أخبارمصر والقاهرة، القسنطينية، 1286 هـ، ح 2 ، ص 99، أنظر:
Thoumin : Histoire de Syrie , 2éme Edition, Paris 1929 , P 232.

35 تذكر مصادر غربية أن هولاكو سجنة الخليفة مع أمواله وتركه حتى مات جوعا، أنظر:
Hayton : Op Cit , P 169, note 1.

36 اليافعي: مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، طبعة حيدار، 1919 -1921، ص 446- 447.

37 أنظر:
Guiragos : Op Cit , P 491 , Grousset : L'empire des Steppes, 4éme Edition , Paris 1976, P 430.

38 الهمداني: المصدر نفسه، ص 287، وأنظر:
D'Ohsson : Op Cit , PP 431- 432

39 فؤاد عبد المعطى: المرجع السابق، ص 289، وأنظر:
Grousset : L'empire des steppes , PP 431- 432.

40 المقريزي: المصدر السابق، ص 366.

41 السيوطي: المصدر السابق، ص 473.

42 أنظر:

Hayton: Op Cit, P 170, Vartan D'Edesse : Journal Asiatique , 1860, I , P 293.

43 أنظر:

Dardel , Op Cit , P 13, note 1, Deguignes : Op Cit , P 249.

44 أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصالحية، القاهرة، 1287، ص 204، وأنظر:

Gestes des Chyprois: Op Cit , P 751 .

45 المقريزي: المصدر نفسه، ص 420.

46 القلقشندي، المصدر السابق، ح 4، ص 320.

47 ابن العبرى: المصدر السابق، ص 677، وأنظر:

Deguignes : Op Cit , P 248,
Cahen : Op Cit , P 704.

48 ابن كثير : البداية والنهاية، القاهرة 1358، ح 13، ص 218، وأنظر :

Howorth : Op Cit , P 147.

49 فؤاد عبد المعطى: المرجع السابق، ص 294، وأنظر:

Grenard : Gengis - Khan , Paris 1935 , P 195.

50 أنظر:

Hayton : Op Cit , P 171, D'Ohsson : Op Cit , P 325.

51 أنظر:

Ibidem , Saint Martin, Op Cit, P 395.

52 الهمداني: المصدر السابق، ص 307– 308، ابن تغرى بردى، المصدر السابق، ح7، ص 776.

53 أنظر:

D' Ohsson; Op Cit, P 325, Grousset : Histoir –crois, TIII, P 589.

54 ابن تغرى بردى: المصدر نفسه: ص 74- 75 .

55 ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، ص 280.

56 أنظر:

Rumunian: Op Cit, P 528, Lamb , The Crusades, Loondon 1930, P 340.

57 أنظر :

Dellaborde: Lettres des Chretiens de la terre Sainte 1260, Revue de l'Orient Latin, 1894, P 24

58 المقريزي: المصدر نفسه، ص 455.

59 الهمداني: المصدر نفسه، ص 310، القلقشندي ، المصدر نفسه، ح8، ص 63-64.

60 الهمداني: المصدر نفسه، ص 311- 313.

61 عين جالوت: بلدة بين نيسان ونابلس من أعمال فلسطين: ياقوت الحموى: المصدر السابق، ح 3 ، ص 760.

62 ابن تغرى بردى: المصدر نفسه، ص 79، وأنظر

63 الهمداني: المصدر نفسه: ص 316.

64 المقريزي: المصدر نفسه: ص 433.

# الدور التجاري لمدينة
# ورقلة في العصر الوسيط

**إعداد: أ. محاضر بوطارن مبارك**
المدرسة العليا للأساتذة في الآداب والعلوم الإنسانية بوزريعة الجزائر
**أ. محاضر خلف محمد نجيب**
معهد الآثار، جامعة الجزائر

**مقدمة:**

كثيرة هي المدن الجزائرية التي كان لها دور لا يستهان به بين مدن بلاد المغرب في العصر الوسيط، وما تلمسان، وتاهرت، وأشير، وقلعة بني حماد، وبجاية، وغيرها كثير إلا أسماء لعدد قليل من ذلك الزخم الكبير من المدن الجزائرية التي ذاع صيتها بين مختلف المدن في حقبة ما من الحقب التاريخية، ولكن هذا الماضي التليد لهذا الكم الهائل ما زال يحتاج إلى من يعيد له الاعتبار، وما هذه البادرة إلا محاولة منا لإبراز إحدى الجوانب المهمة لمدينة ورقلة عسانا أن نقدم إضافة جديدة إلى تاريخ هذه المدينة.

**ورقلة نقطة استقطاب بشري في وسط صحراوي:**

تعد منطقة ورقلة من المناطق القليلة في الصحراء التي اجتمعت فيها الشروط الطبيعية اللازمة لقيام المجتمع البشري،[1] علما أن الواحة تقع في بيئة صحراوية قاحلة تعتبر من أكثر صحاري العالم جفافا .

لقد وصفت الصحراء بكثير من النعوت، فقد قيل عنها أنها الفضاء الواسع، وقيل عنها أيضا "أنها المستوية في لين وغلظ دون القفر". إنّ هذا الوصف ينطبق تماما على الصحراء الجزائرية حيث تعد من أكبر الصحاري وأوسعها في العالم، ذلك أنها

---

1 J.J. Letilleux, Ouargla cité saharienne, p.3.

تمتد على أكثر من مليون كيلومتر مربع وهي جزء لا يتجزأ من الصحراء الكبرى التي تمتد غربا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر شرقا، ومن جنوب "السفانا" في بلاد الزّنج إلى سلسلة جبال الأطلس الصحراوي شمالا، بل أنها تمتد في بعض المناطق من البلاد المصرية والليبية إلى البحر[1].

لا يهمنا هنا التحديد الجغرافي لهذا الإقليم الهائل والتعمق فيه لأنه ليس هو هدف بحثنا، بل القصد من وراء ذلك معرفة بعض خصائص هذه المساحة الشاسعة[2]، ومدى تأثيرها السلبي أو الإيجابي في نشأة الواحة ومدينتها وتطورهما.

يمتاز سطح القشرة الأرضية لمنطقة الصحراء بعدم تجانسه من ناحية التضاريس، فهو مكوّن من هضاب، وجبال ذات قمم عالية مثل الهقار والتبستي، ومنخفضات كثيرا ما تكون تحت مستوى سطح البحر بعشرات الأمتار مثل منخفض شط ملغيغ وشط الجريد[3].

## المنـــاخ الصحراوي:

يمتاز مناخ الصحراء عموما ومناخ منطقة ورقلة على وجه الخصوص بقلة أمطاره،[4] فقد تمرّ السنون الطوال دون أن نسجل نزول قطرة من المطر. وهذا ما يجعل معدل تساقط الأمطار في ناحية ورقلة لا يتعدى في بعض السنين 100 ملم وأنّ كمية تساقط الأمطار في السّنين الأخرى لا يرجع على الزراعة بالفائدة الكبيرة وذلك بسبب سرعة تبخرها بفعل الحرارة الشديدة، أو نفاذها إلى الأعماق بسبب طبيعة الأراضي الرملية التي تساعد على تسرب المياه بسرعة.

ومن خصائص مناخ المنطقة أيضا تميزه بالفارق الكبير في درجات الحرارة بين فصلـــي الصيف والشتـــاء، وبالمدى الحراري الواسع بين الليل والنهار، حيث تنحدر درجة الحرارة أحيانا إلى أقل من 20 درجة مئوية تحت الصفر في الليالي الشتوية القارسة ويصعد الزئبق في عز الصيف ليسجل أكثر من 50 درجة مئوية تحت الظل نهارا.

---

1 Rey. Capot, le Sahara français, p u f, 1958, p. 13.

2 إن حدود الصحراء من الناحيتين الشرقية والغربية دقيقة وواضحة حيث يحدها على التوالي البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، في حين نجد حدودها الشمالية والجنوبية صعبة التحديد لعدم وجود حواجز طبيعية واضحة تفصلها عن البيئات الجغرافية الأخرى وتقف حدا فاصلا، بل بالعكس فإن الصحراء مازالت تزحف على حساب الأراضي الصالحة للزراعة في كلا الاتجاهين.

3 Rey. Capot, le Sahara Français, p. 43.

4 Ibidem, p. 43 - 44

أما الرياح الصحراوية فإنها عادة[1] ما تكون حارة وجافة، تعمل على تعرية التربة وتفتيت الصخور، وعلى تجفيف الرطوبة التي خلفها الغيث، فتزيد من صعوبة حياة الإنسان والحيوان على السواء، ويصبح نمو النبات من الأمور المستعصية. فهذه الواحات وما يزرع في ظلها من أشجار مثمرة، وخضراوات، ومحاصيل زراعية أخرى متنوعة، ورغم ما توفره لها أشجار النخيل من مناخ لطيف، فهي تحتاج إلى كميات هائلة من المياه خاصة في فصل الصيف، بل وتتطلب أحيانا الإكثار من سقيها خاصة أثناء فترة هبوب رياح الجنوب المحرقة، وأن الإغفال عن العناية بها ومتابعتها قد يؤدي إلى تلفها.

إن وقوع الصحراء الجزائرية بمحاذاة سلسلة **جبال الأطلس** الصحراوي جعلت من هذه الأخيرة خزان مياهها[2]، فمنها **تنبع بعض الوديان** والجداول التي تؤدي ــ عند وصولها إلى مصبها الذي عادة **ما يكون في منطقة السهوب** أو الصحراء ــ إلى ظهور مناطق جغرافية تمتاز بكثرة **غطائها النباتي** ووفرة إنتاجها. أضف إلى هذا أن هذه المياه هي التي تبعث الحياة **في المناطق المحاذية** لمجاري الأودية فتظهر فيها مساحات رعوية شاسعة دائمة تشجع على **ظهور** النشاط الرعوي في تلك المناطق، وهذا بدوره يؤدي إلى استقرار الإنسان بها.[3]

لقد اهتم المؤرخون والجغرافيون العرب منذ *أقدم* العصور بالصحراء، فكتبوا عنها الكثير، ولم يتركوا منها مجالا إلا وخاضوا فيه، فكان من نتائج ذلك أن قدموا لنا سجلا مهما ضمنوه من المعلومات القيمة، والأوصاف الدقيقة، والملاحظات المهمة، على فيافيها وواحاتها وسبلها ومسالكها وقبائلها وحيواناتها ما يجعل الباحث في أي جانب من هذه الجوانب لا يستغني عن العودة إليها والاستفادة منها للأسباب السابقة.

إن مدن الصحراء مثل ورقله، وسجلماسه، واودعوست، وتمبكتو، مدن نشات منذ القديم، ونمت في العصر الإسلامي فاصطبغت بصبغة الحضارة الإسلامية[1] التي

---

1 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى وشواطئها، 1983، ص 158.

2 Jean Despois, la bordure saharienne de l'Algérie orientale, R. A, 1942, p. 200, ss.

3 هذا ما تم ملاحظته في زياراتنا الاستكشافية.

– أنظر إسماعيل العربي، المدن المغربية. وانظر وصف الجغرافيين العرب لبعض هذه المدن.

1 C. Vanocker, Tegdaoust II, recherches sur Aoudaghost, fouille d'un quartier oriental. Laforgue, notes sur Aoudaghost, D.T.S.G.A. 1922, p.31.

ساهمت مساهمة كبيرة في ربط أواصر المحبة وتبادل المنفعة بين شطري إفريقيا،[2] فهذه المدن هي مقصد للركبان يأتيها التجار من كل مكان ويقصدها طالبو العلم والمعرفة متى تناهى إلى مسامعهم نبأ نبوغ شخصية علمية ما في مجال من مجالات العلم فكان لهذا النشاط أثر كبير على نمو هذه المدن وتطورها.

لقد ارتبطت حياة الإنسان في واحة ورقلة بعناصر أساسية كانت له عونا على الاستقرار في هذه المنطقة والاستمرار في نشاطه، ومن أهم هذه العناصر:

**المـــاء:**

إن توفر بعض مصادر المياه في الطبقات الجوفية من الأرض وعلى سطحها، ساعد سكان الصحراء على تنمية هذه المنطقة الجغرافية الجدباء بإنشاء بعض الواحات، ذلك أن مياه الأمطار قليلة ولا تمكن من ظهور زراعة بعلية. ومع ذلك فإن مياه الأمطار على قلتها تسبّب من حين لآخر بعض الأضرار لسكان المنطقة فعادة ما يتبع هطول الأمطار والسيول التي تتبعها يقظة الوديان وفيضانها، الأمر الذي ينتج عنه[3] عواقب وخيمة تعود على الزرع والضّرع والإنسان على السواء. فقد تغرق مناطق بأسرها في برهة وجيزة من الزمن في الفيضانات فيتضرر من هذه الظاهرة البنيان المقام بمواد هشة، وقد تخرب القرى والمداشر بأكملها. وكأن سكان الواحات يعيشون على النقيضين، فإما الموت بالعطش بفعل الحرارة الشديدة، وإما الغرق بسبب السيول التي تخلفها الأمطار أحيانا محولة بذلك الوديان الصغيرة التي كثيرا ما تشغلها جداول قليلة المياه لتصبح على حين غفلة أنهارا كبيرة مخربة، قد تأتي على التجمعات السكنية فتجعلها أثرا بعد عين.

ورغم كلّ هذه الأضرار التي تلحقها الأمطار بالسكان، فإن هطولها في الفيافي يؤدي إلى تغيير وجه الصحراء فتصبح الأراضي القاحلة التي يغلب عليها الطابع الصخري ومناطق الحمادة والعرق[4] مناطق خضراء مليئة بالأعشاب والأزهار، يقصدها البدو لرعي قطعانهم مما يساعد على بعث الحياة من جديد في نفوس هؤلاء السكان ومواشيهم.

---

2 F. De la chapelle, esquisse d'une histoire du Sahara occidental, in Hesperis, 1930, t XI, p 39.

3 J .Despois, la bordure saharienne de l'Algérie orientale, R .A, 1942, p.201.

4 Rey. Capot, le Sahara Français, p138 et s. 158إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، ص

لقد دفعت الظروف الطبيعية والمناخية القاسية سكان منطقة ورقلة إلى استغلال المياه الجوفية منذ القدم، فتمكنوا من استخراجها عن طريق حفر الآبار الارتوازية.

## الآبار الارتوازية:

تستعمل هذه التقنية بكثرة في ناحيتي ورقلة وسدرا ته،[1] حيث تحفر الأرض حتى مستوى احتباس المياه التي تكون عادة مضغوطة ضغطا عاليا، وعند كسر الحاجز الحجري تندفع هذه الأخيرة إلى الخارج بفعل قوة الضغط ولا يحتاج الإنسان إلى وسائل حديثة لاستخراجها.

إن عملية حفر الآبار الارتوازية عملية معقدة تتطلب من القائمين بها خبرة طويلة، ومهارة جيدة، وشجاعة كبيرة، وصبرا على المشاق. الأمر الذي يجعل من الحفار الذي لا تتوفر فيه هذه الصفات عرضة للأخطار الكبيرة،[2] ذلك أن الحفر في الرمل والطين يعد من الأعمال غير الشاقة مقارنة ببعض التضاريس الأخرى التي يدخل في تكوينها الحجر، غير أنه من الناحية الأمنية لا يخلو من الأخطار بسبب هشاشة الطبقات الأرضية المكونة من هذه المواد والتي تتميز بعدم تماسكها خاصة عندما تكون جافة مما يجعل إمكانية انهيارها على العامل وهو يقوم بعملية الحفر أمرا واردا، وتزيد درجة الخطورة عندما يصل العامل إلى مستوى الطبقة الصخرية التي تحجز المياه، فإذا لم يكن متحكّما بصفة جيّدة في عملية الحفر في هذه المرحلة متمرسا فيها، فقد تندفع المياه بسرعة هائلة مباغتة إياه وهو ما يزال بقاع البئر مما يؤدي إلى هلاكه إذا لم يستدرك الموقف بسرعة.

## إرتباط حياة الاستقرار في الصحاري بالنخلة:

إذ كانت حياة التنقل والترحال تعد السمة الغالبة على حياة سكان الصحراء بفعل الظروف الطبيعية التي لا تشجع على الاستقرار،[3] فإن هذا لا ينفي وجود بعض البقاع القليلة منها الصالحة لحياة الاستقرار والزراعة لتوفر الماء بها ووجود التربة الخصبة المنتجة لمختلف المحاصيل الزراعية. ومع ذلك فإن حياة الاستقرار والعمل الزراعي تبدو وكأنها ضربا من ضروب تدجين الطبيعة لأسباب نذكر منها:

---

1 أما في الجهة الغربية من الصحراء في ناحيتي أدرار وبشار فتستعمل تقنية الفقارة أو القطارة
-J. J. Letilleux, Ouargla, p. 60.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, pp.60-61.

3 هذه الظاهرة هي غالبة في الصحراء أنظر:
- Rey. Capot, le Sahara français. p51.
- J. Letileux, Ouargla, pp.102-117.

أن الأرض كثيرا ما تكون فقيرة للمواد العضوية.

إن النسبة العالية للملح التي تحتويها التربة لا تساعد على الزراعة.

إن المناخ لا يساعد أيضا على عملية الإنبات لجفافه واتساع الفارق في درجات الحرارة بين الليل والنهار من جهة وبين فصلي الشتاء والصيف من جهة ثانية، فقد تنخفض درجة الحرارة في الليالي الشتوية إلى أقل من 20 درجة مئوية تحت الصفر،[1] وقد ترتفع لتصل 50 درجة مئوية تحت الظل أو تفوقها أحيانا في عز أيام الصيف ، زدّ على هذا كله شدة الرياح وعتوها وما تتميز به من حرارة وجفاف، وحملها للأتربة والرمال،[2] ويكفيك دليلا على ذلك أن تقوم بزيارة إلى هذه المناطق أثناء فترات هبوب هذه الرياح لترى بأم عينك معاناة سكان هذه المناطق وكيف تصبح السواقي وغابات النخيل، بعد مرور العواصف الرملية، حيث تضيع نتائج كدّ السنين الطوال في برهة كلمح البصر، فيردم الأخضر واليابس، وتقتلع الحواجز المصنوعة من جريد النخل أو نباتات أخرى والتي أقيمت لغرض حماية هذه المحاصيل، وتردم الآبـــــار وتطمس السواقي وتعود الطبيعة الرملية إلى ما كانت عليه في السابق. وقد تتكرر هذه الظاهرة عدة مرات في السنة لتزيد من شقاء المزارعين، وربما لولا شجرة النخيل التي تربطهم بها علاقة منذ أقدم العصور لاضطروا إلى الهجرة بعيدا عن هذه الظروف القاسية. هذا وإن تمكّن الفلاح رغم كل هذه الصعاب من استصلاح الأرض وزرع المحاصيل، فهناك آفات أخرى تنتظره قد تضيع عليه نتائج مجهوده إن لم يبادر إلى القضاء عليها بالوسائل المتاحة له منها مرض البيوض وآفة الجراد، فالأول يقتل النخلة ببطء، والثاني يلتهم كل أخضر ويجعل النخلة لا تثمر لسنين عديدة.[3]

إذا كانت طبيعة تركيبة القشرة الأرضية في واحة ورقلة رملية طينية، فإن هناك مساحات أرضية شاسعة من الرمل غير ممزوجة بالطين، زد على هذا أن الأرض تفتقر إلى المواد العضوية، الأمر الذي يجعل استغلالها كل سنة أمرا غير مجد مما يحتم على المزارع الاستغناء عن استغلالها مرة كل سنة أو سنتين [4] إذا ما تمت زراعتها

1 Rey. Capot, le Sahara français, p. 51.
2 M. Tarry, excursion archéologique dans la vallée de l'oued Mya, revue d'ethnographie II, 1983, P. 30.
يتكلم صاحب هذا المقال عن سرعة تغطية الرمل لموقع مدينة سدراته.

3 Rey. Capot, le Sahara français, p.335 et s.
4 Rey. Capot, Le Sahara français, p. 305.
– C, L, Bataillon, Le Souf étude de géographie Humaine, 1955, p. 73.

بمختلف الحبوب أو الخضروات حتى يعطيها فرصة لاسترجاع خصوبتها. وقد جرت العادة أن يعمد الفلاح إلى تسميدها بكميات هائلة من الأسمدة العضوية المختلفة، ومع تطور التقنيات الزراعية هاهو اليوم يقدم لها بعض الأسمدة الكيماوية، وتجدر الإشارة هنا أن الأراضي الزراعية في المنطقة من النوع الخصب، خاصة إذا ما زدنا للمناطق الرملية في الواحة كمية من الطين[1] وعملنا على مزجها مع الرمل بنسبة معينة، الأمر الذي يجعلها أقل ترشيحا لمياه السقي، ويجعل الرمال أكثر تماسكا فلا تتطاير مع هبوب أضعف ريح. والعكس صحيح إذا ما أضفنا الرمل أيضا للأراضي الطينية، فهذا العمل يمكنها من التنفس وترشيح المياه الزائدة عن حاجتها والتي تكون في هذه المرحلة قد أصبحت مالحة بعد السقي، أي بعد تعاملها مع الأرض المالحة مما يضر ببعض المحاصيل الزراعية، وهذه الطريقة أيضا تجعل من الأراضي أقل انشقاقا، ذلك أن الأراضي الطينية عند جفافها تؤدي أيضا إلى إتلاف جزء هام من النباتات الصغيرة بسبب تركيبتها.

إن وفرة المياه العذبة، والمناخ الحار الجاف، والتربة الرملية أو الكثيرة الرمل، سيجعل من النخلة شجرة الواحة بدون منازع من حيث المساحة المزروعة، ولما لها من مكانة رئيسية في اقتصاد الواحة. والنخيل يتكاثر وينتج التّمر في أغلب مناطق الصحراء ماعدا تلك الموجودة في منطقة الأهاقار التي يزيد ارتفاعها عن 1400م على مستوى سطح البحر ، أو في المناطق القريبة من المحيط الأطلنطي والمشبعة بالرطوبة.

يعد التمر الغذاء الأساسي لسكان الصحراء بدوهم وحضرهم على السواء منذ قديم الأزمان، والحياة بدونه كانت فيما مضى شبه مستحيلة. وإذا كانت النخلة من النباتات الصحراوية الأصيلة، فإن تاريخ ظهور النخلة في هذه المنطقة لا نعرف عنه الكثير، ومع ذلك فقد عرفها إنسان ما قبل التاريخ واستفاد من ثمارها، وعند ظهور الزراعة في ورقلة عمد إلى زراعتها آنذاك بالتقنيات المتوفرة لديه.

لقد تعلم هذا الإنسان كيف يزرع النخل وكيف يلقح النخلة الأنثى بوضع حبوب الطلع الذكرية (الذكار) فيها، فتمكّن من توسيع مجال إنباتها.

---

1 هـــذا ما يفعله عادة من يريد استصلاح تركيبة أرضه وخاصة لمن يريد زراعتها بغير النخيل.

والجدير بالذكر هنا أن النخيل تتكاثر عادة بطريقتين هما [1]:

1- العلفة: وهي طريقة غير مجدية لإعطائها عددا متساو من الذكور والإناث.

2- الجبارة: تعتبر هذه الطريقة أكثر الطرق استعمالا لأن الفلاح له حرية اختيار جنس النخلة التي يريد زراعتها. وتتلخص هذه الطريقة في قيام الفلاح بترع النخلات الصغيرة التي جرت العادة على إنباتها في أصل الساق الأم، ويقوم بإعادة غرسها في مناطق أخرى فاسحا لنفسه حرية اختيار البراعم التي يراها مناسبة. من المتعارف عليه أن شجرة النخيل لا تعطي ثمارها إلا بعد مرور عدة سنين عن غرسها، وعند بلوغها سن العطاء يسهر الفلاح على تذكيرها كل عام حيث أثبتت التجربة أن محصول النخلة المذكرة بيد الفلاح تعطي محصولا رديئا من الناحية الكمية والنوعية، وعملية التذكير تبدأ في وسط شهر مارس وتنتهي في أواسط أبريل، وإن نضوج الثمار يبدأ في شهر سبتمبر (قبله بأيام أو بعده بأيام) على حسب المناطق، وعلى حسب نوعية النخلة علما أن أنواع التمور كثيرة ومختلفة. ذلك أن كل شجرة نخيل لها خاصياتها المميزة، فبعضها لا ينبت في مناخ معين كالنوع المسمى دقلة نور، وبعضها يتأقلم مع مناخات لا تتأقلم معها هذه الأخيرة.[2] وعلى العموم فإن النتيجة التي يمكن الخروج بها من هذا العرض أن النخلة هي رمز واحة ورقلة وعماد اقتصادها، فقد ساهمت لا محالة في استقرار السكان بهذه الواحة وساعدت على تطور القصر.

**لمحة تاريخية عن مدينة ورقلة:**

تعد مدينة ورقلة من المدن الصحراوية القليلة التي استطاعت أن تنمو وتتطور بصفة مستمرة على مدى حقبات تاريخها الطويل، ويرجع سر هذا النجاح إلى كون المدينة قد استطاعت أن تساهم بصفة نشطة في صناعة القرار ووضعه، الأمر الذي جعلها من أهم المراكز التجارية في القرون الوسطى وهي اليوم من أهم الولايات البترولية.

---

1 للمزيد حول هذا الموضوع راجع بحث "قوفي" Gouvet الذي خصصه لهذا النوع من الزراعة.
- C. Gouvet, la culture du palmier au souf, R.A, 1914.

2 - Rey. Capot, le Sahara français, p. 304.
- voir aussi, Gouvet, la culture du palmier au souf, in R.A, 1914, p.73.
- C, L, C, Bataillon, Le Souf étude de géographie humaine. 1955.

## الموقع:

تقع مدينة ورقلة بقصورها العديدة في الجنوب الشرقي للجزائر، وتبعد عن مدينة الجزائر العاصمة بمسافة 800 كيلومتر (عبر الطريق الوطني رقم 1)، أما بعدها عن البحر الأبيض المتوسط فيقدر بحوالي 575 كيلو متر تحليقا في الجو. إن مصطلح ورقلة هو اسم لكوره قبل أن يصبح اسما لقصر، وهو عنوان لواحة واسعة تمتد على أكثر من ألفي هكتار،[1]* فهي تقع وسط سهل واسع يخترقه وادي ذو المائة جدول.

إن حوض ورقلة حوض شاسع تحدّه من جهة الغرب هضبة أو (حمادة)[39] تمتد حتى منطقتي متليلي ووادي ميزاب وتشتمل هذه الهضبة على عدة تلال مزقتها العوامل الطبيعية من (أمطار وسيول، ورياح، وحرارة). الأمر الذي جعلها تظهر للمستكشف كأنها صورة من صور القمر.

يمتاز حوض ورقلة بعرض لا يزيد عن أربعة كيلومترات قرب قارة كريمة التي تبعد بـــ11 كيلومتر جنوب القصر، ثم يبدأ بالاتساع ليصل عرضه إلى 12 كيلومتر قرب القصر، ثم يضيق من جديد عندما يصل إلى نقوسة على بعد 20 كيلومتر من ورقلة [2].

## الموضــــع:

يوجد قصر ورقلة على تله ترتفع بحوالي 130 متر عن مستوى الحوض،[3] تحيط بها غابة كثيفة من النخيل تمتاز بخضرتها الأبدية التي تلطف جو القصر، وهي تسقى بواسطة المياه الجوفية المتوفرة بكثرة بالمنطقة. لقد كان لموقع مدينة ورقلة دورا أساسيا في نمو المدينة وتطورها، فقد جاء موقع الواحة بين العرقين الشرقي والغربي المنيعين، واللذان يصعب على القوافل التجارية اجتيازهما، بل ويستحيل في أغلب الأحيان، ليجعل منها نقطة رئيسية ومحطة مهمة في طريق القوافل العابرة للصحراء.

والجدير بالذكر أيضا أن المدينة تقع على حدود مناطق البدو الذين يحترفون تربية المواشي المختلفة التي تأتي على رأسها الإبل ثم الغنم بدرجة أقل.لكل هذه

---

1 Rey. Capot, le Sahara français, p.16.

* تضاعفت المساحة الزراعية عدة مرات إثر عمليات الاستصلاح.

-J. Letilleux, Ouargla, p 1.

2 Argean, Excursion archéologique dans la vallée de l'oued Mya, revue d'ethnographie, 1983.

3 إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى، ص 158-159.

الأسباب التي سبق ذكرها، وإضافة إلى ما جاء حول المدينة في المصادر التاريخية والجغرافية القديمة، فإن قصر ورقلة الذي يعد النواة الأولى للمدينة قد أدى دورا حيويا لا يستهان به في تاريخ المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية خاصة، وفي تاريخ المغرب الإسلامي على وجه العموم، كأهم ملتقى للتجارة مع إفريقيا السوداء على مر العصور.[1]

فالمدينة استطاعت أن تنعم عبر حقبات التاريخ بعلاقات وطيدة مع مدن المغرب والمشرق الإسلاميين، ومع مراكز التجارة في إفريقيا جنوب الصحراء، وقبل أن نفتح الباب للتعرّف على أهم مجالات هذه العلاقات، نرى من المفيد إعطاء لمحة وجيزة عن تاريخ المنطقة الذي يرجعه المختصون إلى مرحلة ما قبل التاريخ.

## ورقلة في حقبتي ما قبل التاريخ والقديمة:

لقد اكتشف علماء الآثار العديد من الشواهد التي تدل على أن منطقة ورقلة قد عرفت استقرار الإنسان بها منذ عصور ما قبل التاريخ،[2] وتتمثل هذه الشواهد في العديد من الأدوات التي استعملها إنسان هذه الحقبة من حجارة مكشوطة وعظام ...الخ[3] علما أن سكان المنطقة كانوا من السود أو من الأثيوبيين[4] وإن المنطقة كانت في هذه الفترة أكثر رطوبة وأمطارا، مما جعل أنهارها غزيرة وأراضيها خضرة تكسوها الأعشاب والأشجار، تعيش فيها مختلف أنواع الحيوانات من فيلة وخنازير وأحمرة وحشية.[5]

أما عن نشاط الإنسان الأول الذي سكن هذه المنطقة فقد كان يعيش على الصيد وقطف ثمار الأشجار، الأمر الذي جعله يتنقل على ضفاف هذه الواديان بحثا عن غذائه، باعتبار أن الوديان كانت تمثل نقاط استقطاب للحيوان والإنسان، لما توفره أشجارها من غذاء وما تحتويه أيضا من مياه تقصدها قطعان الحيوانات للارتواء فتكون بذلك من الأماكن المفضلة عند إنسان ما قبل التاريخ للصيد والقنص.

---

1 Tadzeuf lewiki, la répartition géographique des groupements Ibadites dans l'Afrique du nord au moyen age, R.O ,T21 , 1957, p. 31.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 5 – 6 -7.

3 J. Ponet, Aux sources de l'histoire nord africaine, prospérité et décadences Ifrikiyennes, les cahiers de Tunisie, N° 9, 1961.

4 St. Gsell, Le passé de l'Afrique du Nord, p.488 et s.

5 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 6 et s.

ومع مرور الزمن وتكاثر عدد السكان في المنطقة، بدأ الإنسان في واحة ورقلة يتعلم كيفية زراعة النخيل، وبدأ أيضا يكتسب تقنيات جديدة للّري، الأمر الذي مكنه في النهاية من إنشاء الواحة عن طريق اكتناز التجربة وتنميتها، وعندما أصبح الإنسان مزارعا بدأ يبحث عن مواضع للاستقرار فاختار بعض الأماكن لذلك.

ورغم محاولات الدارسين التي تناولت تاريخ ظهور سكان البربر بهذه المنطقة، إلا أننا مازلنا إلى يومنا هذا نجهل الكثير عن كيفية وصول البربر إلى المنطقة وكيف تم استقرارهم بها،[1] اللهم بعض المعلومات القليلة التي تفيدنا عن علاقات سكان منطقة ورقلة مع الفنيقيين والقرطاجيين والرومان، ويبدو أن هذه الشعوب كانت تدرك أهمية المنطقة في التجارة القارية، وربما كان ذلك سببا في وصول بعض أخبار هذا النشاط إلينا. وإذا رجعنا إلى المصادر التاريخية القديمة، فإننا لا نجد بها ذكرا للدور الذي أدته المنطقة في عهدي الوندال والبيزنطيين، اللهم بعض الإشارات البسيطة التي أوردها هؤلاء المؤرخون في سياق كلامهم عن مواضيع أخرى، وللعلم فإن البيزنطيين رغم محاولاتهم للسيطرة على هذه الجهة، إلا أنهم لم يتمكنوا من ذلك وبقيت خارج حدودهم.

**ورقلة في الفترة الإسلامية:**

يعد الشريف الإدريسي[2] واحدا من الجغرافيين العرب الذين تحدثوا عن ورقلة ووصفوها بأوصاف أقل ما يستخلص منها أنها كانت مدينة ميسورة الحال حيث يقول في هذا الصدد:" وهي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم باسم بلادهم، وهم وهبية إباضية نكار خوارج في دين الإسلام ... ومن ورجلان إلى غانه ثلاثون مرحلة ". وبعد هذا الوصف الذي يعبر عن ازدهار اقتصاد ورقلة، تمر القرون ولا نجد عن أخبارها في المصادر التاريخية والجغرافية إلا الشيء القليل، ربما لأنها أصبحت تلعب دورا أقل أهمية مما كانت عليه من قبل خاصة بعد الغزو الهلالي الذي عرفته المنطقة وانتشار قبائلهم في السهول والصحاري، وتمكّنهم من المسالك التجارية، وما كان يصدر عنهم من مضايقات لسكان هذه المناطق[40] ممّا صعّب عمل التجار، مما يرجح فكرة عزوفهم عن ممارسة تجارة القوافل، والحد من النشاط

---

1 F. De La Chapelle, Esquisse, p. 40.

2 الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، ص 88 - 120

40 Paul - Louis Cambuzat, l'évolution des cités du tell en Ifriqiya du VII° au XI° siècle, O P U, tome I, 1986, p. 141 et s.

الاقتصادي، الأمر الذي جعل المنطقة تمر بفترة ركود اقتصادي شأنها في ذلك شأن بقية مناطق بلاد المغرب التي عرفت المصير نفسه في تلك الفترة[1].

لقد أشار الحسن الوزان في كتابه إلى مدينة ورقلة، وخصها ببعض المعلومات والأوصاف المهمة نذكر منها على سبيل المثال نعته لها باسم غرغالة[2]، وهذه الأوصاف تصور لنا حالة القصر على وجه الخصوص والناحية بأكملها في القرن السادس عشر أي زمن المؤلف على وجه العموم.

يقول هذا الجغرافي عن ورقلة: "مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا، لها سور من الآجر النيئ ودور جميلة، وحولها نخل كثير. ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى. الصناع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جدا، لأنهم في اتصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجار الأجانب الغرباء عن البلد، لا سيما من قسنطينة وتونس، يحملون إلى وركلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجار من بلاد السودان.

القمح واللحم نادران جدا، وتؤكل الجمال والنعام. وأغلب الناس سود لا بسبب المناخ ولكن لأن لهم جواري سوداوات يتسرون بهن، فيأتين بأولاد سود. وأهل وركلة كرما ظرفاء، يستقبلون الغرباء استقبالا حسنا، لأنهم لا يملكون غير ما يأتيهم به هؤلاء، كالقمح واللحم والمالح والشحم والمنسوجات والأقمشة والأسلحة والسكاكين، وكل ما يحتاجون إليه على الإجمال.

لوركلة أمير يشرفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبي إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدي إلى جيرانه الأعراب خراجا مرتفعا". [3]

أما العياشي (1037-1090هـ/1628-1679م)[4] الذي زار المدينة، فقد قدم لنا وصفا وافيا لها جاء فيه:" فدخلنا وارقلا قبل غروب الشمس ونزلنا بيا — المدينة المسمى بيا-السلطان وكان من لطف الله بالحجاج أن صادف دخولنا دخول قافلة

---

1 J. J. telilleux, Ouargla, p 106 et s.

2 إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى، ص 158

3 الحسن الوزان، وصف إفريقيا، دار الغرب الإسلامي، ج 2، بيروت، ط2، 1983، ص 136.

4 *مولاي بلحميسي ، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، س .و. ن .و. ت*، ص 17

من الأعراب (الأرباع). قدمت بسمن كثير وغنم وإبل وزرع، اشترى الناس منهم ما احتاجوا بأرخص الأثمان، وقدمت أخرى بعدها بيوم تعمل مثل ذلك أو أكثر فتنعم الناس في اللحم والتمر والسمن[1]، واشترى الحجاج غنما كثيرا حتى كأن تلك الليالي الثلاثة التي أقاموها ليالي منى من كثرة اللحم".

يجدر بنا التنويه هنا أن العياشي مثله مثل من سبقه من المؤرخين قد تكلم عن رخاء المدينة وغناها، وعن ثراء سكانها، وعن علاقة المدينة بريفها، فالأعراب يتوافدون عليها بكثرة لبيع منتجاتهم الريفية من لحم ومشتقات الحليب وشراء ما يحتاجونه منها، بمعنى أن هناك نشاط اقتصادي تكاملي يربط المدينة بأريافها .

يواصل العياشي وصفه لما شاهده بالمدينة،[2] فبعد التحدث عن تأديته لصلاة الجمعة في جامع المالكية ـــ وهذه العبارة إن دلت على شيء فإنما تدل على وجود جامع لغيرهم في المدينة (أي لأتباع المذهب الإباضي) ـــ يرجع مرة ثانية ليصف لنا ما شاهده عندما صعد إلى أعلى المئذنة المشرفة على أرجاء المدينة كلها وهو ما عبر عنه بهذه الكلمات: "...فنظرنا إلى أطرافها ووسطها وكنا نستغلها قبل ذلك فإذا هي عظيمة لها سبعة أبواب وهي في وسط خط من النخيل ومساحة المدينة بالتخمين نحو نصف فرسخ في مثله محيط بها خندق مملوء ماء من كل جهاتها لا يصل أحد إلى سورها إلا من ناحية الأبواب".

وبعـــد التحدّث عن قتل الأمير لأعيان المدينة، الذين اكتشف حياكتهم للمكائد ضده، يعود المؤلف ويصف لنا جامع الإباضيين في المدينة بقوله: "وهو مسجد متقن الصنعة مجصّص الأرض والحيطان على بابه أماكن وفي جوانبه معدة للضوء وقضاء الحاجة ومكان معد لتحسين الماء فأعجبني غاية". ويستمر في كلامه بالحديث عن الغرائب التي صادفته في زيارته للواحة، ومن الأمور التي وصفها بالغرابة والتي تستحق منا الوقوف عندها قليلا هي (كيفية استخراج الماء)، فقد جاء في وصفه لهذه العملية: "ومن غرائب هذه البلدة استخراج عيون الماء الغزيرة بحفر الآبار فيحفرون بئرا نحو

---

1 أنظر أيضا في هذا الميدان كتاب: "J. Letilleux «Ouargla cité saharienne" وكتاب Rey. Capot الصحراء الفرنسية الذي يتحدث فيه بالتدقيق عن إنتاج هذه المنطقة الزراعية.

2 راجع كتاب الرحلة للعياشي.

من خمسين قامة ثم يصلون إلى حجر مصفح على وجه الأرض فينقرونه فإذ نقبوه فاض منه الماء فيضانا قويا ويطلع كذلك بسرعة إلى فم البئر ويصير عينا.

فإن لم يتدارك الحافر بالجذف أغرقه الماء(1) ومتى احتاجت العيون إلى الكنس، حصلت لمتعاطي كنسها مشقة كبيرة وربما تركوها بلا كنس للمشقة فتندثر".

يستخلص من كلام العياشي أن في حفر الآبار بورقلة مشقة عظمى مردها إلى مميزات التربة التي سبق الحديث عنها، كما أن عملية تنظيفها المتكررة لا تخلو أيضا من الصعوبة، نظرا لكمية المياه الهائلة المتدفقة من البئر وللعمق الكبير الذي يميز أغلب هذه الآبار، الأمر الذي لا يسمح بتنظيفها بسهولة، فيضطر السكان إلى تركها على حالها وهذا الأمر قد يؤدي مع مرور الزمن إلى اندثارها وطمسها.

إن بروز مدينة ورقلة على الساحة الاقتصادية بين مدن الصحراء وحتى بين مدن الشمال كانت النتيجة الطبيعية لتحكمها في المسالك الصحراوية واستحواذها على تجارة العبور، حيث أهّلها موقعها بوصفه مجازا ما بين الشمال والجنوب(2) لتؤدي دورا بالغ الأهمية في هذا النوع من التجارة، ذلك أن الواحة تمثل ملتقى طرق القوافل التجارية التي تمر عبرها لتربطها بمناطق مختلفة كسجلماسة،(3) وتمبوكتو، وغانة، وتوات، وغرداية، وتلمسان، والجريد، ووادي سوف، وغدامس، وواحة سيوه .

وقد كانت طرق الشمال تصل عبرها إلى ورقلة القوافل المحمّلة بالمنتجات المختلفة لهذه المناطق سواء أكانت زراعية أو مصنعة. ومن بين السلع المتداولة في هذه التجارة نخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر الأواني النحاسية، ومنتجات الحديد والزّجاج، والعطور، والتمور، والتين المجفف، والمنسوجات المختلفة (قطنية، صوفية ، حريرية)،(3) والقمح، والملح، والجلود المدبوغة، والحلي، والخيول(4). وكان أهل ورقلة بدورهم يتولون تصدير بعض هذه المواد إلى بلاد السودان، وقد أشار إلى هذا

---

1 إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى، ص 159.

2 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 59.
3 Elsa Solal, les Ibadites en Afrique, D E A, université Aix en Provence, p. 78.
- اليعقوبي، كتاب البلدان، ص 360

3 جودت عبد الكريم جودت، العلاقات الخارجية، ص 273

4 مؤلف مجهول، الاستبصار في غرائب الأمصار، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 214 وما يليها.

الأمر الشريف الإدريسي الذي جعل من تجار ورقلة وسطاء تجاريين بين سكان شمال أفريقيا وممالك بلاد السودان، ومن ورقلة مركز عبور تجاري مهم بين طرفي الصحراء الكبرى فيه تجمع السلع ومنها تحمل القوافل إلى بلاد السودان. يقول الإدريسي: "... وليس بعد أرض لملم في جهة الجنوب عمارة تعرف، وبلاد لملم تتصل من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمر من بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء."[1]

وكانت المدينة تجلب من بلاد السودان خصوصا التبر،[2] ريش النعام، والعبيد.[3] وقد ساهم هؤلاء العبيد في استصلاح مساحات واسعة من الواحة، وكانوا يقومون بالأعمال الشاقة التي لا يقوم بها الأحرار وقد استعملوا أيضا كخدم في المنازل.[4]

إن موقع المدينة الذي يعد نقطة اتصال بين عالمين مختلفتين من حيث الحضارة، والمناخ، ومن حيث المنتجات الزراعية والمصنعة سينعكس إيجابا على تطور المدينة وازدهارها، حيث سيجعل نموها يتبع وتيرة سريعة [5] بفضل تداخل هذه الحضارات وانصهارها في بوتقة واحدة بما يخدم مصلحة المدينة، وقد تضفي عليها الثروات التي تزخر بها المنطقة وتلك التي تتلقاها المدينة عن طريق التبادل التجاري مسحة نوعية تساعد على تسارع نمو هذه المدينة في شتى مناحي الحضارة وهو ما سنحاول مناقشته في مايلي.

## مراحل تطور التجارة في الصحراء:

عرفت الصحراء الكبرى ظاهرة استقرار التجمعات البشرية فيها منذ العهود المبكرة ، بدءا من مرحلة ما قبل التاريخ كما سبقت الإشارة إلى ذلك إلى يوم الناس هذا، وتتفق الآراء على أن سكان الصحراء الأوائل ليسوا من الجنس الأبيض. أما

---

1 الإدريسي، وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، الجزائر، 1957، ص 5.

2 يقول الإدريسي: "... فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل المغرب الأقصى وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع" كتاب وصف أفريقيا الشمالية والصحراوية، ص 9.

3 جودت عبد الكريم جودت، المرجع السابق، ص 276 وما يليها.

4 J. J. Letilleux, Ouargla, p. 59.

5 Rey capot, le Sahara Français, p. 245 et s.

وصول هؤلاء البيض إلى الصحراء عموما وإلى ورقله خصوصا فلم يتم إلا في فترات متأخرة نوعا ما، ربما كان ذلك في العهد الروماني، وقد كانت أهم وسيلة استعملتها القبائل البربرية للتوغل في الصحراء هي الجمل.[1] إن هذا الحيوان الصّبور سيمكّن الإنسان من الانتصار على شساعة الرقعة، وشدة جفافها، وقلة مواردها، بالربط بين مسافاتها الطويلة. وللعلم أن الجمل ليس حيوانا صحراويا أصيلا بل جلب إليها من مناطق جغرافية أخرى[2]، فمن المعروف أن دخول الجمل إلى مصر إنما وقع نتيجة لغزو الفرس لها، ومن المحتمل أن يكون قد وصل إلى الصحراء الكبرى عن طريق مصر.

والجدير بالتنويه إليه أن الجمل الذي يعيش في صحرائنا جمل ذو سنم واحد، وهذا النوع من الحيوانات استطاع التكيّف مع طبيعة الصحراء وجعل منها موطنا له، لقد تعوّد هذا الجمل على الحشائش الخشنة الموجودة في الأراضي الصحراوية القاحلة فأضحت غذاءه اليومي. كما تأقلم أيضا مع ظاهرة قلة المياه فأصبح بإمكانه الاستغناء عنها لفترة زمنية طويلة الأمر الذي لا تقدر عليه بقية الحيوانات الأخرى، أضف إلى هذا أنه يستطيع مقاومة الحر والقر في النهار، والبرودة القاسية في الليالي الشتوية بفضل وبره الذي يمثل إحدى المواد الخام التي ساهمت في تنشيط اقتصاد المدينة.

يمتاز الجمل بالصبر وبالقدرة الكبيرة على تحمّل المشاق، وبإمكانياته الهائلة أيضا على حمل الأثقال والسير لمدة طويلة من الزمن.[3] مما جعل منه إلى وقت قريب وسيلة النقل الأولى في الصحراء دون منازع.

استخدم الجمل من طرف الجيوش الرومانية في مختلف الأغراض العسكرية فيما عدا القتال، أما البربر فقد استعملوه كوسيلة للمقاومة شأنهم في ذلك شأن الفرس وأداة للفر والهرب عندما يشتد الاضطهاد عليهم من طرف الرومان.

كان لظاهرة البداوة التي تميز بها سكان بلاد المغرب، التي غلب عليها طابع التنقل والترحال من المناطق السهبية والصحراوية إلى المناطق التلية صيفا بحثا عن الغذاء لمواشيهم والعودة إلى مضاربهم شتاء أثر كبير ساهم في تقويتها لهذا الحيوان وترسيخه، وبانتشار هذه الظاهرة تقلص نفوذ الرومان ومن جاء بعدهم من

---

1 F. De la chapelle, esquisse, p. 41.

2 إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 33-34.

3 Rey. Capot, le Sahara français. p 434 et s

المستعمرين المغتصبين للأراضي والقاهرين لأهلها، فتوسعت الأراضي المستقلة الخارجة عن نفوذهم نظرا لصعوبة التحكم في سكانها الرحل وعدم قدرة المستعمر على الصمود أمام ضرباتهم المتكررة.[1] لقد ساهم هذا الحيوان الصّبور في تمكين البربر والعرب من استغلال خيرات الصحراء الشاسعة، ومكّن سكان واحاتها من الاتصال فيما بينهم من جهة، وبالعالم الخارجي من جهة ثانية.[2]

وبناء على ما سبق يمكن القول أن وصول الجمل إلى منطقة ورقلة ساهم لا محالة في إخراج المنطقة وأهلها من العزلة المفروضة عليهم وإدخالهم في مختلف النشاطات الاقتصادية منها والاجتماعية والسياسية للمجتمعات القديمة بما تعنيه الكلمة من معاني. إذن يستخلص من هذا كله أن الجمل أحدث ثورة كبيرة في مجال الاتصالات في المناطق الصحراوية، وربط بين واحاتها[3] ومناطق رعيها وجعل منها وحدة اقتصادية متكاملة، وأهلها مع مرور الزمن لربط علاقات وطيدة مع المناطق المحاذية لها، فقبل دخول الجمل إلى الصحراء كانت منطقة ورقلة تعيش شبه عزلة انطوت فيها على نفسها معتمدة في سدّ حاجات سكانها البسيطة على ما توفره المنطقة من وسائل العيش سواء كانت كافية أم غير كافية بمعنى أنها كانت شبه مكتفية ذاتيا بالمفهوم الاقتصادي الحديث.[4]

وعلى الرغم من توفر المياه التي مكنت إنسان واحة ورقله من زراعة النخيل، وبعض أشجار الفواكه الأخرى، والحبوب، وبعض الخضار التي يمكن أن تنمو في هذه الظروف المناخية،[5] وعلى الرغم أيضا من وجود مراعي تعيش عليها العديد من قطعان الإبل والماعز والأغنام، فإن اقتصاد الواحة كان يفتقد لموارد ومنتجات المناطق الأخرى التي لا تنتج محليا.

إن وصول الجمل إلى الواحة جعل سكانها على غرار الواحات الأخرى يستعملونه كوسيلة نقل، سهلت ربطهم بالمناطق الأخرى، ومكّنتهم من افتكاك قسم

---

1 De la chapelle, esquisse, p. 45 et s.

2 إسماعيل العربي، المرجع السابق، ص 35 وما يليها.

3 المرجع نفسه، ص 42 - 43

4 وهذا ما يتم فعله عادة في الواحات حيث الزراعة تحت النخيل تقلل من عملية التبخر.

5 مازالت إلى وقتنا الحالي بعض المناطق تسد حاجاتها من الخضار .

من التجارة في ذلك الوقت مما جعل هذا الاقتصاد يحظى بمكانة مميزة بين اقتصاديات المدن الأخرى.

وعلى الرغم من أهمية الجمل للاقتصاد الصحراوي في القرون الوسطى، كونه الوسيلة الفريدة المستعملة في المسافات البعيدة لنقل البضائع،[1] فإن هذا الحيوان الصبور ماكان له أن يعيش في هذه الفيافي بدون مساعدة الإنسان.

**أهمية ورقلة في التجارة مع بلاد السودان:**

جاء في تعريف القزويني لبلاد السودان قوله أنها تلك البقعة من الأرض "التي ينتهي شمالها إلى أرض البربر وجنوبها إلى البرادي وشرقها إلى الحبشة وغربها إلى المحيط"[2]، وقد أظهرت البحوث الحديثة وجود علاقات وطيدة بين بلاد المغرب والسودان منذ أقدم العصور[3].

وتشير المصادر الإسلامية إلى أن العلاقات التجارية بين بلاد المغرب وإفريقيا جنوب الصحراء استقطبت جهود المسلمين منذ عهد الولاة.

إن أصحاب الأمر من السياسيين و العسكريين والتجار في تلك الحقبة كانوا واعون بأهمية إفريقيا السوداء من الناحية الاقتصادية، فهم على علم بغناها بالمواد المنجمية وخاصة مادة الذهب.[4] ويرون في إنتاجها الزراعي والحيواني بابا كبيرا للرّبح لاختلافه عن إنتاج بلاد الإسلام مغربا ومشرقا ودول العالم الوسيط الأخرى، هذا الأمر دفع بعبد الرحمن بن حبيب الفهري حاكم افريقية (127-137هـ / 744-754م) للعمل على تهيئة الظروف الملائمة لإنجاح عملية التبادل التجاري بين المنطقتين، فاختار لهذا الأمر المسالك وجهّزها بسلسلة من الآبار.[5]

يفهم مما سلف أن الاتصالات ظهرت بين طرفي الصحراء الكبرى في المرحلة الإسلامية المبكرة قبل عهد الدويلات.

---

1 Rey. Capot Le Sahara français. p. 433.

2 القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صابر، بيروت، ص 24.

3 جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، 1984، ص 233.

4 Marcel Emerit, les liaisons terrestres entre les soudans et l'Afrique du nord au XVIII et au début du XIX siècle Nouveaux de l'institut de études saharienne 1954 p 20.

5 البكري، كتاب المغرب في ذكر أفريقية والمغرب، طبعة باريس، 1965، ص 156-157.
للمزيد أنظر: مبارك بوطارن، تطور العمران الإسلامي، دكتوراه دولة غير منشورة، جامعة الجزائر، 2007، ص 322.

أما العهد الرستمي فقد ازدادت فيه هذه العلاقة قوة ومتانة، وكانت حركتها التجارية مع بلاد السودان أهم مواردها الاقتصادية،[1] وقد أثبتت كتب التاريخ وجود اتصالات شخصية عن طريق الرسل بين أئمة الدولة الرستمية في تاهرت وملوك بعض ممالك إفريقيا جنوب الصحراء في ذلك الوقت، وقد أشار ابن الصغير إلى إرسال الإمام أفلح محمد بن عرفة بن طرف [2] يحمل هدية فاخرة إلى ملك كوكو[3] إحدى مماليك السودان [4] وقد قبلت هذه السفارة برضا الملك والثناء عليه حيث جاء في مدحه له على لسان ابن الصغير: "أنت حسن الوجه حسن الهيئة والأعمال"[5]*

لعل ما يستخلص من هذه العبارة هو إعجاب ملك كوكو بشخصية ابن عرفه رسول الإمام أفلح، وبثقافته ولطفه وهيئته، ولم يخف فرحته بهذه الهدية الوقع الذي تركته في نفسيته، فكان لهذه الصفات التي امتدح بها ابن عرفة أكبر الأثر في توطيد عرى المودة بينه وبين الإمام أفلح.

**ورقلة مرحلة مهمة في طريق السودان:**

ارتبطت الدولة الرستمية على العموم وعاصمتها **تاهرت** على الخصوص بإفريقيا جنوب الصحراء عبر طريقين هامين هما:

1- الطريق الغربي: ويمر بسجلماسة[6] عاصمة دولة بني مدرار ويسير محاذيا للبحر. ذلك أن موقع مدينة سجلماسة كان يتوسط طريق التجارة الرابط بين الشمال والجنوب (أي مدن العالم الإسلامي وبلاد السودان). وإذا كان من الصعب تحديد تاريخ بداية استخدام هذه الطريق من قبل القوافل التجارية، نظرا للصمت الذي ميز المصادر التاريخية والجغرافية الوسيطية حول هذه النقطة، إذا ما استثنينا من ذلك ابن

---

1 Cheik Bekri, le kharijisme berbère, A, I, E, O, p. 104.

2 محمد بن عرفة من الشخصيات المقربة إلى الإمامين أفلح وابنه أبي بكر حيث يذكر ابن الصغير أن ابن عرفة كانت له علاقة مصاهرة بأبي بكر بن أفلح الذي تزوج أخته أو ابنته كما تزوج هو أيضا أخت أبي بكر. وقد كانت لهذه العلاقة دورا كبيرا في تقريبه من الإمام أبي بكر إلى درجة أصبح يشارك فيها الإمام تسيير شؤون الدولة. أنظر: كتاب أخبار الأئمة الرستميين، ص 63- 64.

3 لم تذكر لنا المصادر اسم هذا الملك ولا المملكة التي يحكمها.

4 ابن الصغير، المصدر السابق، ص31

5 المصدر نفسه والصفحة.

6 جودت عبد الكريم، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، ص 265 وما يليها.

عبدالحكم الذي أشار إلى قافلة تجارية ناجحة قادها شخصية تدعى عبيد الله حبيب الفهري إلى كل من منطقة السوس وأرض السودان وعادت من هذه المناطق محملة بكميات كبيرة من الذهب والعبيد،[1] فإن غالبية المصادر التاريخية لم تشر إلى هذه الطريق قبل هذه الفترة كون أن ما كتب حول الجهة لا يعدو إشارات بسيطة إلى المنطقة على هامش بعض الحوادث التاريخية، ومع ذلك فإذا كنا نجهل البدايات الأولى لاستغلال هذه الطريق، فإنه من المرجح أن تكون قد عرفت استخدامها بصفة مكثفة من طرف القوافل التجارية مع تأسيس مدينة سجلماسة التي باتت محطة تجارية جهوية مهمة في طريق التجارة الرابط بين شمال المغرب الإسلامي على وجه الخصوص، وبلاد الإسلام على وجه العموم من جهة، وبلاد السودان جنوب الصحراء من جهة ثانية خاصة بعد أن أصبح الطريق الشرقي الرابط بين البلاد الإسلامية وبلاد السودان غير آمن وهو ما تؤكده بعض المصادر التاريخية.[2]

2- طريق شرقي: ويمر بواحة ورقلة، وإذا كان الأول لا يدخل في صلب بحثنا، فإن الطريق الثاني هو الذي يهمنا باعتبار أن مدينة ورقلة تمثل إحدى محطاته الهامة.[3]

كانت ورقلة في عهد الرستميين تحت سلطة أئمة تاهرت، لذا حضيت باهتمام كبير من طرف أمراء الدولة وتجارها، فكان التاجر يخرج من عاصمة الدولة تاهرت إلى حصن ابن كرام عبر المتيجة، ومنه يأخذ الطريق إلى إمارة هاز العلوية، ثم إلى بلد بني دمر وهم إحدى فروع قبيلة زناتة الذين كانوا يعيشون على الترحال في منطقة تبعد بمرحلة عن إمارة هاز، ثم يتوجه التجار إلى مدينة أربة بوابة الزّاب من

---

1 ابن عبد الحكم، فتوح أفريقية والأندلس، بيروت، 1964، ص94

2 يقول ابن حوقل،"... وفيها الطريق من مصر إلى غانه فتواترت الرياح على قوافلهم ومفرد تهم، فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة، وقصدهم أيضا العدو فأهلكهم غير دفعة، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة". كتاب صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992، ص 65

- يرجع صاحب كتاب الاستبصار ترك تجار القوافل هذا الطريق إلى ندرة المياه حيث يقول: "بلاد الواحات: وهي بلاد كثيرة في الصحراء ما بين بلاد افريقية وبلاد مصر، ولولا قلة الماء في هذه الصحراء لكان الطريق من أفريقية إلى مصر على الواحات أقرب". مؤلف مجهول، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، مطبعة جامعة الإسكندرية، 1958، ص 147.

3 الإدريسي، نزهة المشتاق، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 91 وما يليها.

جهة الغرب، ومنها إلى مقرة التي يسكنها قوم من العجم وحولها قوم من البربر، ومن بني تميم ومن هذه المدينة تواصل القوافل السير إلى طبنة العاصمة الإقليمية للزّاب ومقام الوالي ومنها تتوجه إلى بسكرة وهي مدينة كبيرة كثيرة النخيل والخضار، والمدينة مصورة عليها حائط وخندق[1] ومن بسكرة يتوجه التجّار إلى ورقلة عاصمة التجارة الصحراوية، ونقطة تجمع القوافل قبل الانطلاق في أصعب قسم وأخطره من الرحلة إلى الضفّة الأخرى من الصحراء .

وعلى حسب روايات الجغرافيين و المؤرخين العرب، تبعد ورقلة عن مدينة المسيلة باثنتي عشرة مرحلة[2] أي أن المسافة بين طبنة وورقلة تقدر بحوالي عشرين مرحلة.

إن المصادر الإسلامية التي تكلمت عن ورقلة لا تعد قليلة فحسب، بل إن هذا النزر القليل يعد شحيحا من حيث حجم المعلومات التي نقلتها خاصة إذا ما تعلق الأمر بالمرحلة المبكّرة من الحقبة الإسلامية. ومع هذا يظهر من دراسة هذه المصادر أن أهل المدينة كانوا من الأغنياء يتاجرون مع إفريقيا جنوب الصّحراء و يتجوّلون في مسالكها وممالكها بحثا عن الفرص التجارية، فكانوا يصدّرون الملح والنحاس وبعض المنتجات المغربية ويستوردون الذهب وبعض المواد المصنعة الأخرى.

لقد أدت كلا من مدينتي ورقلة وسجلماسة دورا هاما في التجارة مع بلاد السودان. وإذا كانت سجلماسة الصفرية عاصمة لبني مدرار وأم قرى دولتهم، فإن ورقلة كانت هي الأخرى أهم ميناء صحراوي بالنسبة لتاهرت الإباضية عاصمة دولة بني رستم. تلك المرحلة الزمنية التي شهدت فيها مدينة ورقلة رخاء اقتصاديا لا نظير له، كان فيها لعاملي الأمن والاستقرار دورا بالغ الأهمية في ازدهار اقتصادها، لكن هذا الرخاء الاقتصادي، وهذه السمعة الطيبة التي عرفت بها المدينة _ إلى درجة تعدت فيها حدود بلاد المغرب الإسلامي _ لم يكتب له الاستمرار بالوتيرة نفسها ، إذ سرعان ما تفشت فيها الفوضى والقلاقل بسبب غزو قبائل بني هلال العربية لأفريقية، وللمناطق المجاورة لها وتضييقهم الخناق على أهلها، وما ترتب عن هذا الأمر من هجرات سكان المنطقة وترك مدنهم بحثا عن الأمن والاستقرار الذين طالما افتقدوهما أثناء هذا الغزو الهلالي، فكان لورقلة نصيبها من هجرة سكان المناطق

1 البكري، المصدر السابق ص 52.

2 الإدريسي، صفة المغرب وأرض السودان، ص 88-120.

القرية منها الذين قصدوها هروبا من بطش الهلاليين، وباستقرارهم بها أصبحت التركيبة البشرية للمدينة مكونة من مجموعة من الأعراق التي تتبع مذاهب دينية مختلفة، الأمر الذي جعل المدينة تدخل في مرحلة من الصراعات القبلية. وما زاد في تغذية هذه الصراعات مكانة المدينة الاقتصادية التي جعلت سكان بلاد المغرب الإسلامي يتهافتون عليها فأصبحت مع مرور الزمن محط أطماع حكام بعض دول بلاد المغرب[1] بدءا بالسلطان الحمادي الناصر الذي ألحقها بدولته في منتصف القرن الخامس الهجري وولى عليها حاكما مواليا له، ومرورا ببعض الثورات الداخلية التي أضعفت المدينة، وانتهاء بثورة ابن غانية الذي سيطر على كل الصحراء وأصبح يجوب الصحراء بجيوشه دون رادع، يغزو ويدمر كل من يقف في وجهه، فتمكن من تخريب مدينة ورقلة سنة 626 هـــ / 1129م بعد أن دمر قبلها مدينة تاهرت في سنة 606 هـــ /1209م[2] لتكون بذلك بداية انهيار دولة الخوارج في بلاد المغرب كدولة قائمة بذاتها سياسيا واقتصاديا في كل من تاهرت وورقلة، تلك الدولة التي كانت تحسب لها بقية الدول ألف حساب، تمابها دول وتستملها أخرى ليتراجع معها دور ورقلة الاقتصادي الهام بين مدن الصحراء والشمال، ولتتراجع مكانتها بين بقية المدن بعد أن هجرت أهم المراكز الإباضية المحيطة بها مثل سدراته وانسحاب بقية الخوارج منها إلى منطقة وادي ميزاب أمام الهجمات المتكررة عليها من طرف بعض أمراء الدول المجاورة لها.[3]

وخلاصة القول أن مدينة ورقلة التي تعد إحدى مدن الجزائر القديمة إن لم تسترع انتباه المؤرخين والجغرافيين القدامى، وإن لم تحظ بقدر كاف من الدراسات الحديثة، فهذا لا يعني أن المدينة لم يكن لها شأن بين المدن الإسلامية الصحراوية في العصر الوسيط، بل بالعكس فمن خلال هذه الدراسة المتواضعة تبين لنا أن المدينة كانت تحظى بمكانة مرموقة بين مدن تلك الفترة الزمنية، ذلك أن هذه الدراسة سمحت لنا بالخروج بجملة من النتائج نوجزها في ما يلي:

أولا: إن المدينة كما يتضح من موقعها أنشئت في بيئة صحراوية طاردة كما يبدو للدارس في أول وهلة، ولكننا نعتقد أنه لولا وجود الشروط الواجب توفرها في إنشاء المدن قديما كما عددها الجغرافيون العرب من ماء ومحطب ومرعى وميرة لما غامر أهلها بإنشائها في هذا المكان الصحراوي.

---

1 ابن خلدون، كتاب العبر، ج3، ص 285.

2 Madelaine Rouvillois – Brigol, le pays de Ouargla, Paris, 1975, p. 20.

3 Ibid, p 22.

ثانيا: إن وقوع المدينة بين عرقين شرقي وغربي وعلى مسافة متوسطة بين الشمال والجنوب،جعل المدينة تكتسب مكانة مهمة في تجارة القوافل بين مدن شمال أفريقيا ومدن جنوب الصحراء لأنها كانت تمثل الممر الوحيد وسط الصحراء الوسطى إلى مدن بلاد السودان، فكان المرور بها ضرورة حتمتها الظروف الطبيعية مما جعلها مركز عبور مهم لقوافل التجارة، وقد أدى هذا إلى رفع درجة تجارها ليصبحوا مع مرور الزمن وسطاء لتبادل البضائع بين تجار الشمال وتجار أفريقيا ناهيك عن احترافهم مهنة تجارة القوافل مع دول بلاد السودان لمعرفتهم بأهم مسالك المنطقة التي اكتسبوها عن طريق الممارسة.

ثالثا: لقد ساهمت العوامل السالفة الذكر في نمو المدينة وتطورها عمرانيا واقتصاديا، ما أهل المدينة لكي تصبح محطة تجارية مهمة في طريق التجارة الرابط بين الشمال وبلاد السودان وقد كان للجانب التجاري أثره على ازدياد عدد السكان بها وعلى نماء المدينة وتوسعها ورفع مكانتها بين بقية المدن.